الرنوك المملوكية[1]

لجمال محمد محرز

إذا نظرت الى التحف والآثار التي تركها لنا المماليك — سلاطين وامراء — استرعت انتباهك ظاهرة فريدة في نوعها لا مثيل لها في الآثار الاسلامية الاخرى بمصر، الا الايوبية . وهي رسوم في دائرة أو منطقة ، يحيط بها في بعض الاحيان شريط من النقوش الكتابية تواليه ادعية وتمنيات لصاحب الأثر . فنقرأ مثلاً : اليمن والاقبال، عز لمولانا السلطان، الى غير ذلك من تلك العبارات التي امتاز بها الطراز المملوكي

تلك هي الرنوك . واستعمالها يرجع الى العصور القديمة ، فنجدها عند المصريين والحيثيين والاسرائيليين والأغريق وغيرهم . وفي الكتب الادبية القديمة والدينية اشارات الى الرنوك عند الاغريق وبني اسرائيل ، كما نسمع عن أسد يهوذا ونسور القياصرة [2]. ويرجح ان معناها في العصور القديمة يختلف عن مدلولها في العصور الوسطى ، ولعلها كانت في البداية رموزاً تتصل بالديانات والعقائد [3]

اما في العصور الوسطى فكانت تستعمل في الغرب شعاراً للاشخاص والأسر بينما كانت في الشرق شعاراً للوظائف ، ولكنها لم تبلغ عند المماليك ما بلغته في الغرب من حيث الاهتمام العظيم بها ووضع القواعد والقوانين لتنظيمها مما ساعد كثيراً على دراسة الرنوك الغربية[4]

اما في الشرق فليس لدينا لسوء الحظ مصادر كافية تمثل هذه الدراسة ؟ إذ ان ما روته الكتب الأدبية والتاريخية عنها قليل ، ومعظمه غامض ينقصه الدقة والشرح

والحق ان جل الاعتماد في دراسة هذه الرنوك يرجع ما نقش منها على التحف الزجاجية والمعدنية وعلى المباني خاصة ، وذلك لعناية التي كانت تبذل في دقة اظهار هذه الرنوك إذ انه كما

---

(١) الرنوك مفردها رنك وهي كلمة فرنسية الاصل بمعنى لون استعملت في العصور الوسطى للدلالة على الاشعرة (٢) راجع ص ١ — ١٢ من الفصل الاول من كتاب A Complete Guide to Heraldry by Fox Davies (٣) من الادلة على ذلك ان شعار القبائل المصرية القديمة قبل توحيدها كان عبارة عن علم به رسم رمز من رموز الحيوانات المقدسة (٤) يرجع الفضل العظيم لتقدم الرنوك الغربية الى المماليك اذ اقتبس الغربيون منهم . راجع المصدر السابق ص ١٣ وكذلك زينات الاسلام ٢ ترجمة الدكتور زكي محمد حسن ص ٥٩ — ٧٠

كانت الفائدة التي يرتجى الوصول اليها من معدن نفيس أو مادة غالية الثمن قد زادت العناية برقمه . ويمكن ملاحظة ذلك من المقارنة بين الرنوك المنقوشة على المواد السالفة الذكر وتلك التي رسمها على الخشب والنسيج والخزف

ومهما يكن من الأمر فان الذين نقشوا رنوكهم على التحف من مختلف المواد : على الحجر والخشب والمعدن والخزف والزجاج والورق والنسيج والعاج والمغلم، وكانت الاشعرة في البداية بدون مناطق ، كالأسد[1] شعار بيبرس ، ثم رسمت أحياناً بدون المناطق وأحياناً داخلها مثل شعار تنكز . وأخيراً عمَّ رسمها في مناطق تامة الاستدارة اومدببة كشعار قره سنقر[2]

ثم تعددت أشكال المناطق فصار منها المربع والمفصص واليساري (أنظر شكل ٥١٥)

ويذهب البعض في تعليل ظهور الرنوك الأولى بدون منطقة الى ان هذه الأشعرة كانت تظهر أصلاً على البارق والاعلام ، ثم ظهرت داخل تلك المناطق المستديرة متأثرة بشكل الدروع الحربية ، ثم تعددت أشكال المناطق وقيل ان ظهور المناطق المدببة راجع الى اقتباس المماليك الدروع المدببة الشكل عن الصليبيين ولقد بلغ عدد الأشعرة المملوكية المعروفة الى الآن خمسين شعاراً ، عرف مدلول بعضها . ومن أهمها الكأس والمفضة والقوس والبغجة والخونجة (المتعددة) وعصا البولو وزهرة النوتس والصولجان

ولم يقتصر الأمر على تلك الاشكال الرمزية بل تعداها الى الطيور والحيوانات . ولكن عددها كان ضئيلاً بعكس مثيلاتها في الرنوك الغربية . وأهم المعروف منها النسر والأسد ، وهما من أحسن الأشكال وأقدمها . أما غيرها فنشكك في صحة اتخاذه رنوكاً . كالبط المنسوب الى قلاوون والسمك المنسوب الى ابنه محمد وكالحصان والوعل

ونجد الأسد غالباً كأنهُ زاحف يرفع ذنبه ورجله اليمنى . أما النسر فقد رسموه برأس واحد ملتفت الى اليمين او الشمال أو برأسين متدابرين وكذلك إما بجناح واحد وإما بجناحين منشورين وتظهر المخالب عادةً كأنها ممسكة بنهاية الجناحين

ولقد دخل على الرنوك شيء من التعقيد بعد ان وصلت الى استخدام المناطق كما رأينا . فلم يكتف برسم شكل واحد داخل المنطقة بل زاد عدد الأشكال في المنطقة حتى بلغت في القرن الخامس عشر الميلادي تسعة أشكال في بعض الأحيان . وكان يتوصل الى ذلك بأن تقسم أرضية المنطقة او الدائرة كما كانت تسمى ، الى ثلاثة أقسام يسمى كل قسم منها شطفة وأكبرها عادة الوسطى . وبها أكثر الاشكال

---

(١) هناك اختلاف حول حقيقة هذا الحيوان أهو أسد أم فهد أم مجرد حيوان مفترس

(٢) راجع ص ٢٦ — ٢٧ من كتاب Saracenic Heraldry للاستاذ ماير فقد أشار الى الحالات المختلفة مع ذكر أمثلة لها والاستاذ ماير كبير الاخصائيين في الرنوك الشرقية واستاذ الآثار الاسلامية بفلسطين

وتنقسم الزنوك البسيطة والمركبة الى أقسام تأنواع الزنوك البسيطة هي :

١ — شعار بدون منطقة ٢ — منطقة خالية من الرسوم ٣ — منطقة خالية من الرسوم ولكن بها نقوشاً كتابية ٤ — منطقة داخلها رسم . أما أنواع الزنوك المركبة فهي :

١ — نوع ذو شارة تتكرر مرتين أو ثلاثاً ٢ — نوع توامه عدة شارات مختلفة ٣ — نوع به الشارات المعروفة ومعها رسوم حيوانات ٤ — نوع ذو شعارين مختلفين على اناء واحد ومن المحتمل ان احدهما للامير والآخر لأحد أتباعه

وقد ظهر في أواخر القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر الميلادي نوع آخر « خرطوش » قاصر على السلاطين وكان أول ظهوره على الأواني المشكاوات والسلطانيات وما شابه ذلك وهو خالٍ من الرسوم وليس به الا كتابات فقط، ونلاحظ أن ألقاب السلاطين لم تأخذ في الظهور على هذه الخراطيش الا في وسط القرن الرابع عشر الميلادي

ويقسم الخرطوش الى ثلاثة أقسام ، الشطفة الوسطى عليها نقوش والعليا والسفلى خاليتان ويحتمل وجود خراطيش غير مقسمة . أما أشكال الخرطوش فمنها ما هو دائري ، ومنى شكل الكثرى ، والمفصص ، ومنها ما هو مربع الشطفة الوسطى وتنتهي العليا بقوس والسفلى مثلثة الشكل

وبالرغم من التعقيد والاختلاف العظيم في أشكال الزنوك فانه يمكن ارجاع اربعة اخماسها الى واحدة من المجموعات الثلاث الآتية : — (شكل « ٢ »)

١ — كأس كبيرة في الشطفة الوسطى وأخرى صغيرة في السفلى

٢ — مقلمة في الوسطى وبقجة في كل من العليا والسفلى

٣ — كأس منقوش على جسمها مقلمة ، وعن يمين الكأس وشمالها بوقان أو سروالا الفتوة كما كانا يسميان . وفي الشطفة العليا بقجة والسفلى كأس صغيرة

ونلاحظ ان الظاهرة المشتركة في هذه المجموعات الثلاث هي تقسيم المنطقة الى ثلاث شطب اكبرها الوسطى . وكان الدافع الى هذا التنوع الرغبة في سهولة الاستدلال على أصحاب الزنوك اذ ازداد عددهم زيادة عظيمة ، فبلغ رجال الخاصة « الخاصكية » مثلاً في عهد برسباي ١٠٠٠ شخص ، مما أدى الى ضياع الفائدة المرجوة من استخدام الألوان وهي التمييز بين الزنوك ، نظراً الى ان الألوان ودرجاتها محدودة . وكان يتوصل الى التمييز بين الزنوك تلوين كل رنك بلون خاص أو بدرجة خاصة منه اذا ما شاركه رنك آخر في اللون نفسه وكانت تلون المنطقة أحياناً بدرجتين للون الواحد ، ولذا كثرت الألوان بدرجاتها المختلفة ولا غرابة في ذلك لأن رنك معناها أصلاً اللون

(١) [الشطف] لاحظ ان رجال الآثار العربية في مصر يجمعون مشكاة على مشكاوات ، ورجال اللغة يقولون ان جمع مشكاة مشكيات

وأظهر ما تكون الألوان على الزجاج والفسيفساء وطلاء الجدران والأواني الخزفية . أما ألوان الفخار فلا يعتمد عليها ولا يوثق بها لتأثر الألوان بالحرارة مما يجعلها تختلط بعضها ببعض وبذلك لا نستطيع تحديد مناطق الألوان وبعبارة أخرى يفسد التصميم الأصلي للرنك[1] . أما المعادن فيندر تلوين الرنوك المنقوشة عليها وان لونت فهي ذات لون ابيض أو أحمر ، ووجدت حالة واحدة استخدم فيها التطعيم بالذهب واللون الأسود وهي مقلمة ابي الفداء ، ومثل المعادن المعاثر ولقد وجدت حالات عُمد فيها الى استخدام الفسيفساء الحجرية للحصول على اللون المطلوب

ويمكن ان نحصي الألوان في الأبيض (فضي على المعادن) والأصفر (ذهبي على المعادن والزجاج) والأحمر والأخضر والأزرق والرمادي والأسود والسمني (وهذا غالباً على الفخار) وجميع هذه الألوان كانت بدرجاتها المختلفة

وهناك ألوان ذاتية بمعنى ان الرنك هو لون المادة ويتوصل الى ذلك في الخزف باستعمال الزجاج الشفاف الذي يغطى به الطمي المصنوع منه الآنية ليعطيها بريقاً ويزيد في قيمتها ولتمنع امتصاص الطمي الالوان

والمعروف أن الأسر في الغرب خاصة تتخذ رنكاً لتميزها من غيرها من الأسر ويكفي أن يرى الانسان رنكاً على أي شيء كمتاع أو بناء ليعلم ان صاحبهُ يمت الى الأسرة صاحبة هذا الرنك . ولذلك نجد الرنوك مختلفة ولا تشترك أسرتان في شعار واحد بعكس ما نراه في الشرق ؟ إذ أن الشعار الواحد يشترك فيه اشخاص كثيرون[2] لا يمتُ بعضهم الى بعض بصلة أو قرابة إلا صلة الزمالة أو قرابة النشأة . فما السر في هذا الاشتراك ؟

والإجابة عن هذا السؤال تدعونا الى البحث عن مدلول هذه الرنوك . ونحن نستطيع الجزم مما ورد في النجوم الزاهرة ، وفي تاريخ ابي الفداء ، ومن مقارنة النقوش الكتابية المصاحبة للرنوك بما كتب عن اصحابها في الكتب الأدبية والتاريخية ، أن هذه الرنوك كانت فيما عدا حالات قليلة جداً تدل على الوظائف التي كان يشغلها الامراء وقت أن اصبحوا امراء . وطبعي ان يكون هناك اشتراك في الرنوك لأن الوظائف حق شاع بين المماليك الامراء جميعاً

قال ابو المحاسن في كتابه النجوم الزاهرة إن الملك الصالح نجم الدين عند ما عين ايبك اميراً أعطاه خوشجة شعاراً له . وقال ابو الفداء في تاريخه ان الامراء اصحاب الوظائف كانت لهم أشرة خاصة فشعار الدوادار (الكرتيز) المقلمة ، والطشت دار (المشرف على الخازن)

(١) ان الزجاج والاواني الخزفية تتعرض كذلك للحرارة ولكن ما سبق ذكره من حيث العناية التي توجه الى هاتين المادتين يفسر لك وضوح الالوان فيها (٢) يجب ملاحظة ان الالوان تختلف في الرنوك المتحدة الموضوع وهذا لا يسهل ادراكه الا على الاخصائيين

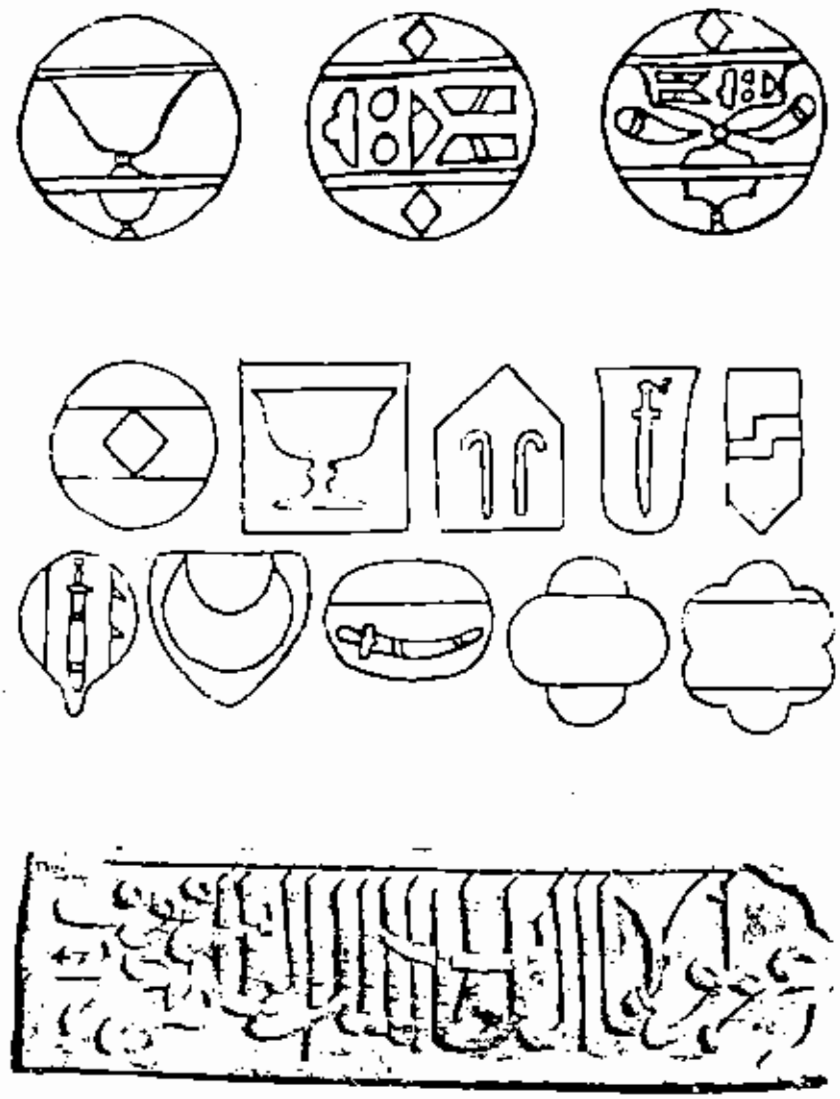

٥ خرطوش ، مستعمل منذ سلطان المنوفي الظاهر برقوق

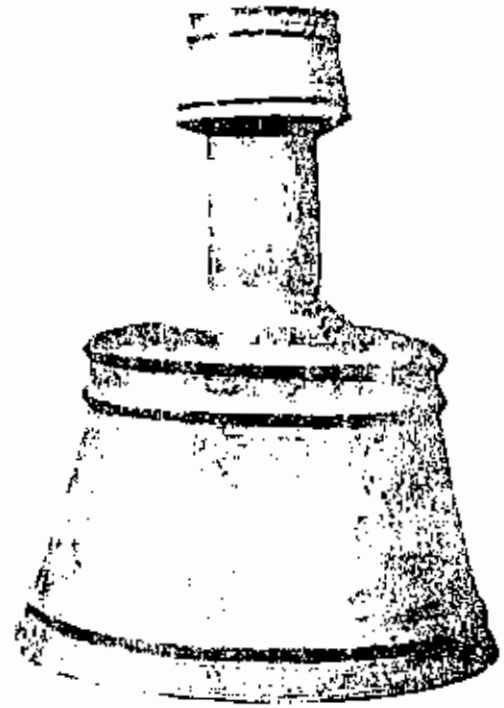

الطشت ، والسلاح دار (حامل السلاح) السيف ، والبندقدار السهم ، والامير آخور[1] (امير المعلف أو المتولي الأشراف على الاصطبلات) حدوة فرس ، والجمدار (المتولي امور الملابس) بفجه ، والخاربش[2] قبة مذهبة

وبالقياس نستطيع ان نضيف الى ما ذكره ابو الفداء : الساقي (متولي السقاية والاشراف على الموائد) وشاره كأس ، والجوكندار عصا البولو ، والخاشكير (ذائق الطعام) خوذة اي منطدة ، والعلم دار (المتولي امر اعلام السلطان) علم ، والطبل دار الطبلة والعصا ، والبشمقدار (حامل الاحذية) الحذاء ، والجقدار (حامل الدبوس) الدبوس ، والبريدي دائرة ذات ثلاث شطف . وقد فسر الاستاذ ماير العلامة التي على شكل ترس بأنها تدل على القرن الذي كان يحفظ فيه البارود[3] ، وقد سبق ان ذكرنا انها كانت تسمى سروال الفتوة ، ولكن لم يذكر لنا اسم الوظيفة التي تدل عليها العلامة

واني أرى انه ربما كانت هذه العلامة هي شعار تلك الفرقة التي كانت تشرب كأس الفتوة باسم السلطان وتلبس سراويل الفتوة وترمي البندق باسمه . وكانت هذه الفرقة تقوم بألعاب خارج المدينة من أهمها رمي الحمام . وكانت خاصة للسلطان له أن يدخل فيها من يشاء ويخرج من يريد[4]

على ذلك نقول ان الرنك يدل على الوظيفة وان ذلك الشكل داخل المنطقة علامة او رمز يوضح لنا نوعها وماهيتها ولكن كانت الوظائف المملوكية الخاصة بالامراء على نوعين : وظائف كبرى وصغرى ، يدلنا على ذلك قولهم امير سلاح وأمير آخور ودوادار كبير ، وسلاح دار وأمير آخور صغير ، ودوادار صغير ، فالى اي نوع اشير الرنوك ؟

من المعترف به ان بعض هذه الرنوك يدل على الوظائف الصغرى وهي التي لم يتولاها قط أمير عظيم ومثل هذه الخاشكير والجمدار والجوكندار والعلم دار ، اما تلك الوظائف التي يصاحبها لفظ امير او كبير كوظيفة امير سلاح ودوادار كبير فان ذكر تلك الألفاظ أو عدم ذكرها لا يغير من قيمة الوظيفة نفسها لأن هذه الوظائف معدودة من الوظائف السلطانية الكبرى والتي يتولاها الامراء العظام

---

(١) ذكر الاستاذ ماير في كتابه السالف الذكر ان معنى أمير آخور هو قائد Marshal وهذا مخالف للحقيقة . انظر شرح هذا اللفظ في كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي الذي يعنى بنشره الدكتور محمد مصطفى زيادة الجزء الاول ، القسم الثاني ، حاشية ٣ صفحة ٤٣٨ لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٣٦ (٢) احد أربعة من جنود الحلقة وظيفتهم امير امام السماط أو الطائف في مواكب الحداء وتقيه الملوة وهم أيضاً من رتبة بسيطة يقومون بالرسالات الخاصة بمخدومهم . انظر ص ١٧ حاشية ٣ من الجزء الاول القسم الثالث سنة ٩٣٩ من كتاب السلوك السابق الذكر

(٣) انظر مقال الاستاذ ماير في Une énigme du blason وعنوانه B. I. E. TXXI, 1939

(٤) Bulletin Musulman انظر الجزء الاول — القسم الاول من كتاب السلوك السالف الذكر ص ١٢٢ — ٢٣ حاشية ٢

واذا ما علمنا أن الامراء لم يكن من عادتهم تناسي مراكزهم السياسية يوم أن كانوا أجنادا بل كانوا يعتزون بها ويفخرون بتلك الأيام تصح لنا السبب في عدم ذكر تلك الوظائف الكبرى على الرنوك وذلك لأن هذه الوظائف لا يناطها الأمير إلا بالترقية في مراتب الامارة ولأنه لم يكن يغير شعاره بترقيه في مناصب الامارة كما سنبين ذلك فيما بعد

وبذا تكون تلك الرنوك دالة على الوظائف الكبرى والصغرى على السواء ولو لم تذكر الوظائف الكبرى على الرنوك أو تصاحبها للأسباب السالفة الذكر

ونلاحظ أنهُ كلما كان الرنك بسيطاً سهل الاستدلال على وظيفة صاحبه في البلاط السلطاني وكلما تعقد قلت دلالته وصعب الاهتداء الى مدلوله وقد يكون التعقيد راجعاً الى ان الشخص كان يشغل عدة وظائف في البلاط او الى مجرد الزخرفة

ولقد تطور معنى الرنوك بمضي الزمن ولم يعد يدل على الوظيفة في القرن الخامس عشر الميلادي اذ أصبح شعاراً للفرق الحربية المختلفة لأن كل أمير كان مكلفاً حيازة عدد من المماليك يختلف عددهم بحسب مرتبة الأمير ، وكان هؤلاء المماليك يتخذون شعار أميرهم اوسيدهم شعاراً لفرقتهم . وقد تتفق بعض الفرق في شعار واحد مع اختلاف اللون مثال ذلك الفرقة الظاهرية اتباع برقوق والأشرفية اتباع قايتباي

وهذه الحيوانات ما معنى اتخاذها رنكاً ؟ ذهب البعض الى ان هذه رموز ناطقة Armes Parlantes تعبر عما أتصف به الأمير من صفات وتترجم عن اسمه ان كان للاسم معنى ، ولقد اعتمد في هذا الرأي على ما ذكره ابن اياس عند كلامه على رنك بيبرس اذ قال انهُ يدل على شجاعته . على أننا نلاحظ ان رنكه يدل على اسمه اذ ان المقطع الأخير من الاسم « برس » معناه فهد في اللغة التركية (١)

ولقد اتخذت أمثلة من هذه الرنوك لتأييد هذا الرأي ولكن بالبحث نجد أنها ضعيفة ولا يعتمد عليها (٢) . ولقد ذهب الاستاذ ماير في كتابه ان هذه الحيوانات لا تنطبق عليها هذه النسبة معتمداً في رأيه هذا على النتيجة التي وصل اليها من فحص الأمثلة التي اتخذت أساساً لهذه النظرية وعلى بعض المراجع العربية المعاصرة للمماليك ولكنهُ للاسف لم يذكرها لنا غير أنهُ قال إنها لم تشر الى ان هذه الحيوانات تدل على صفات الأمراء

والشعار الذي يؤيد هذه النظرية هو شعار جمال الدين أجوش حاكم الكرك وهو الذي يدل رنكه (طائر أبيض) على اسمه وكذلك شعار بيبرس . ولكن سواء أكان ذلك مؤيداً لتلك

(١) انظر ص ٧ من مقال الكابتن كرزويل عن اعمال الظاهر بيبرس البندقداري في مصر والشرق في مجلة المعهد الفرنسي للآثار الشرقية ج ٢٦ القسم الثاني الصادر في سنة ١٩٣٠

(٢) راجع ص ٧ من Saracenic Heraldry للاستاذ ماير

النظرية أم مجرد مصادفة فانها ما زالت في حاجة الى التأييد وخاصة ان بعض هذه الحيوانات مشكوك في اتخاذها رنوكاً كما سبق القول

هل كانت الرنوك عامة ؟ بمعنى ان لكل شخص من خاصة السلطان مملوكاً كان أو أميراً حق حملها أم انها كانت قاصرة على فئة بالذات ؟ نستنتج مما قاله ابو المحاسن وأبو الفداء ان الرنوك كانت قاصرة على الأمراء ، والحق انها كانت كذلك اذ لم يرد اسم شخص غير السلاطين والأمراء على جميع القطع الأثرية التي وجدت والتي عليها رنوك ، واذا كان بعض رجال الدين قد حملوها فان ذلك راجع الى انهم كانوا من رجال السيف علاوة على وظيفتهم المدنية

ونستنبط ايضاً من كلامهما ان الرنوك كانت في أول الأمر منحة من السلطان ثم أصبح الأمر للامراء يختار الواحد منهم الرنك الذي يروقه ، ولم يقع هذا الاجراء الا بسبب كثرتهم ونستطيع ان نقول بعبارة أخرى ان الرنوك كانت في أواخر الأيوبيين وزمن دولة المماليك الاولى منحة وكانت في زمن دولة المماليك الثانية اختيارية . ولكن لا نعلم ان كانت تمنح للامراء لشخصيتهم ووظائفهم أم لأنهم من طبقة الأمراء . ويظهر أننا لا نستطيع التفرقة بين الحالتين نظراً لأن كل أمير كان له عمل ووظيفة يشغلها . قلنا ان الرنك هو رمز للوظيفة التي كان يشغلها الشخص يوم ان نصب أميراً، فهل كان يغير رنكه تبعاً لتقلده في الوظائف وخاصة عند ترقيته في مراتب الامارة ؟ اختلف المشتغلون بالآثار بصدد هذا السؤال فمنهم من أيد الرأي القائل بتغيير الرنك مثل فان برشم الذي أبدى السبب في اتخاذه هذا الرأي ، ومثل جابه وارتين باشا اللذين لم يبديا سبباً ما يؤيد رأيهما ، ومنهم من نفى هذا القول مثل الاستاذ ماير

ولقد اعتمد فان برشم في قوله هذا على شعارين مختلفين لأحد الأمراء وهو أقبغا ابن عبد الواحد والشعار الأول عبارة عن بقجة مرسومة على مشكاة والثاني كأس مرسومة على آنية كروية الشكل . وكان اقبغا هذا جداراً ثم استادراً . ولكن قام الاستاذ ماير بفحص هذين الشعارين والتحقيق واتضح له ان الشعار الاصلي (بقجة) موجود تحت الشعار الجديد مما يدل على أن الشعار ظل واحداً في كلا الزمنين وان هذا التغيير راجع الى انتقال ملكية الآنية الى شخص آخر استطاع تغيير الرنك ولم يستطع محو الاسم . وكذلك اتضح من مقارنة الخطين أن الخط المكتوب على المشكاة اقل جودة من الذي على الآنية مما يدل على أنها متقدمة في الزمن على الآنية وهي التي عليها الكأس والتي اتضح بعد فحصها ان الشعار الاصلي (بقجة) موجود فيها تحت الكأس . من هذا نقول إن هذا الأمير لم يغير رنكه عند انتقاله الى وظيفة اخرى . وثم أمثلة اخرى تؤيد الرأي القائل بعدم التغيير ومنها عدم تغيير كثير من الأمراء لأشعتهم على نحتهم المختلفة

قلنا ان الزيوك رسم للوظائف ونحن نعلم ان النساء لم يكن لهن حق في الوظائف ولم يشغلنها ولكن بالرغم من ذلك وجدت زيوك تصاحبها اسماء سيدات . فما معنى هذا ؟ يفحص هذه الزيوك اتضح من بعضها انها لم تكن خاصة بهؤلاء السيدات بل انها خاصة بآبائهن أو أزواجهن الذين كانوا يشغلون تلك المناصب السلطانية التي تشير اليها الزيوك (١)

من هذا نرى ان النساء كن يشترين أشرعة آبائهن أو أزواجهن وينقشنها على ما يُشيد لهن من عمائر أو يصنع لهن من تحف

بقيت هناك مسألة أخيرة وهي مسألة الوراثة . فهل كانت هذه الزيوك وراثية ؟ أي يتعاقبها الأبناء والاحفاد عن الآباء والأجداد كما يحدث في الغرب . اختلف المشتغلون بالآثار بصدد هذه المسألة ايضاً . فمنهم من قال انها غير وراثية ومنهم من قال انها وراثية مستدلاً على توارث ابناء واحفاد قلاون لشعاره وشعار ابنه محمد وكذلك حمل بركة خان لشعار والده بيبرس

ولكن بالرغم من ذلك فإننا لا نستطيع الجزم بأن الاشعرة كانت متوارثة اطلاقاً وذلك لقلة المعلومات عن ابناء امراء المماليك . غير اننا اذا ما عرفنا النظام الذي سار عليه الأمراء نحو ابنائهم من حيث انهم لم يسمحوا لهم بالانخراط في سلكهم ولم يقبلوا صهرهم الى زمرتهم للاختلاف بين النشأتين ، فالامراء اصلهم ارقاء وابناؤهم غير ارقاء وان المماليك لم يكن عندهم نظام وراثة العرش ، إن كان قد وجد في أسرة قلاون وفي تولية بركة خان بعد والده فانها حالة شاذة ولم تكن القاعدة المتبعة في الدولتين المملوكيتين —

اذا ما عرفنا كل هذا امكننا ان نقول ونحن مطمئنون الى صحة قولنا ان الأشعرة لم تكن متوارثة انهم الا في الابناء الذين ينشأون نشأة حربية ويقتفون آثار آبائهم أو يفلحون في الاحتفاظ بعرش آبائهم . اما باقي الابناء وهم الأغلبية العظمى فكانوا يوجهون وجهة غير حربية ويعدون للوظائف الدينية والدنيوية وبذلك يحرمون حمل أشعرة آبائهم وتوارثها

على ان الاشعرة عند المماليك لم يقدر لها ان تصل الى المكانة التي وصلت اليها في الغرب بالرغم من الفضل العظيم الذي يرجع الى المماليك في تقدم الزيوك في الغرب . أقول لم تصل لأنها كانت في الغرب وسيلة للتعرف على الشخصيات وقت القتال وطريقة يهتدي بها الاتباع الى السادة وقت القتال لاختفاء معالم الوجه تحت القناع . وللاهتمام الشخصي العظيم الذي وجه اليها في الغرب دون الشرق لأن الابن كان يفخر بأنه يقاتل بالأسلحة التي قاتل بها والده ويفتخر بأنه يحارب تحت الشعار الذي حارب تحته ومن أجله والده من قبل . ومن ثم كان الاهتمام العظيم الشخصي بالمحافظة على الزيوك وعلى ألا يستعملها اشخاص غير اصحابها مما أدى الى تسجيلها وسن القوانين حمايتها والى عناية المتاحف والمعاهد بدراستها

(١) راجع صفحة ٤١ — ٤٢ من كتاب الاستاذ ماير السالف الذكر